مشاهد قصة أصحاب الكهف

نظرات وعبر

إعداد

د. عفاف عبد الغفور حميد

المقدمة

لسورة الكهف طابعها المميز الخاص، المختلف عن سور القرآن الكريم، تلك السورة المكية ذات الطابع القصصي، وذات الفضل العظيم لقارئها ومتدبرها ومتمثلها، فكل قصة في السورة تمد الأخرى بشحنة من فيض الإيمان، وعبر عظيمة تجعل متأملها بعيداً عن الشطط والتيه، وتعصمه من أعتى الفتن الدنيوية، والابتلاءات التي هي من سنن الله في الحياة والكون.

ولا يخفى على كل متخصص في الدراسات الإسلامية ما كان لهذه القصص من الأثر في تثبيت الرسول ﷺ ومن حوله من الصحابة، حيث التسلية والاعتبار بالأمم الماضية، وخصوصا أنها نزلت في وقت اشتداد المعركة الفكرية بين الرسول ﷺ وبين قريش والمشركين، فقد نزلت قبيل الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة، وهي تؤدي ذات المغزى لكل الأجيال والقرون من أن النصر حليف الأنبياء وأنصارهم من المؤمنين كما وعد الله تعالى فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ غافر: ٥١. وفيها من الدلائل والمواعظ ما يجعلها حصن المؤمن لأنها تضع أمامه صوراً من الصراع الأزلي بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين طلاب الآخرة وعباد الدنيا، فضلاً عن اشتمالها على الحقائق والتنبيهات المتضمنة للإعجاز الغيبي والعلمي والبلاغي.

وعرض هذه القصص التي جاءت في سورة الكهف جميعاً في هذا البحث أمر متعذر، لذلك سأكتفي بنموذج واحد دال على غيره وهو قصة الفتية المؤمنين (أهل الكهف)، لما تتضمنه القصة من إيثار الإيمان والحياة الآخرة الباقية على مفاتن الدنيا وزينتها الزائلة. وعدم الخضوع للجبابرة والطغاة، والهجرة عند استحالة الاستمرار مع هؤلاء الطغاة حفاظاً على الدين، إنها قصة تتجدد معانيها في كل زمان ومكان لاستخلاص الدروس والعبر منها، والثبات على المبدأ والعقيدة تجاه الانحراف والفساد، والضلال والكفر.

وقد اتبعت في هذا البحث منهج التفسير الموضوعي، القائم على الوصف والتحليل للآيات خلال مصادر التفسير، وأبرز النواحي التي درستها في هذا البحث، فضائل السورة وعلاقة مقدمة السورة بقصة أهل الكهف، وسبب

النزول، وأحداث القصة ومشاهدها التي استخلصت منها العبر والحكم.

* أستاذ مساعد في قسم أصول الدين بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية / جامعة الشارقة

فضائل السورة

تأتي أهمية السورة لكثرة الأحاديث في فضائلها، فقد ورد فيها روايات كثيرة تدل على أهميتها، وهذه بعض من هذه الروايات:

عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال"[١]، وفي بعض الروايات "عصم من فتنة الدجال"[٢]، وعنه كذلك قال: "من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عصمة له من الدجال"[٣]، وفي رواية أيضاً: "من قرأ عشر آيات من الكهف"[٤].

[١]- أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، ٥٥٥/١

[٢]- أبو داود ، سنن أبي داود ح(٤٣٢٣)، والإمام أحمد ، مسنده، ٤٤٩/٦ .

[٣]- الإمام أحمد، المسند ، ٤٦٦/٦، والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٥٩٩) ، (٢٦٠٧)

[٤]- الهيثمي نور الدين، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١١٨/١٠،والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٦٠٣)

ولا تعارض بين الروايات، فمن قرأ من أولها أو آخرها أو من أي عشرة منها حفظه الله من فتنة الدجال.

وعن رسول الله ﷺ قال: "من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً ما بين السماء والأرض"[٥].

وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: "من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين"[٦].

وعند الحافظ أبو بكر بن مردويه: "سطع له نورٌ من تحت قدمه إلى عنان السماء، يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين".

وروى الحافظ ضياء الدين المقدسي عن علي مرفوعاً: "من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من

[٥]- أخرجه الإمام أحمد، ٤٣٩/٣ ، والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٦١١).

[٦]- أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٦٨/٢ وصححه، وكذلك الألباني في صحيح الجامع الصغير ٣٤٠/٥ ح (٦٣٤٦).

كل فتنة، وإن خرج الدجال عصم منه"[١].

وروى الحاكم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ سورة الكهف كما أنزلت ثم خرج إلى الدجال، لم يسلط عليه، ولم يكن له عليه سبيل"[٢]

كما روي عن البراء بن عازب ﷺ " كان رجل يقرأ سورة الكهف، وعنده فرس مربوط بشطنين فتغشته سحابة، فجعلت تدور وتدنو، وجعل فرسه يدنو منها، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال رسول الله ﷺ : تلك السكينة تنزلت للقرآن"[٣]

[١]- راجع: ابن كثير. أبو الفدا اسماعيل.(١٩٨٥) .مختصر تفسيره للصابوني،ط٥ . دمشق، دار القلم، ٤٠٧/٢.

[٢] الحاكم، أبو عبد الله، المستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم ، باب من قرأ سورة الكهف لم يسلط عليه الدجال، ٥١١/٤، وقال عنه الذهبي في التلخيص: صحيح (الحاشية)

[٣] البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف رقم (٥٠١١)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب نزول السكينة لقراءة القرآن برقم (٧٩٥)، والترمذي في كتاب ثواب

وورود كل هذه الأحاديث في فضل سورة الكهف والحث على قراءتها أو جزء منها كل جمعة، وأنها وقاية من فتنة الدجال، وبما أن فتنة الدجال هي من أعظم الفتن التي تواجه البشرية عامة والمسلمين خاصة، فهي إذن وقاية من كل الفتن الدنيوية، وما أكثرها فهناك فتنة المال والأولاد والجاه والسلطة والعلم... وكل هذا نجده في ثنايا هذه السورة ومن خلال قصصها، يقول ﷺ: "ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أكبر من الدجال قد أكل الطعام ومشى في الأسواق"[٤].

ويلفت المفسر ابن عاشور النظر إلى موقع السورة وحسن ترتيبها في القرآن لأنها تقارب منتصف المصحف، وهي مفتتحة بـ " الحمد لله" حتى يكون افتتاح النصف الثاني من القرآن بها كما كان افتتاح النصف الأول بـ" الحمد لله" وكما كان أول الربع الرابع منه

القرآن، باب ما جاء في سورة الكهف برقم (٢٠٤٦).

[٤]- مسلم في صحيحه كتاب الفتن، باب في بقية من أحاديث الدجال ٢٢٦١/٤، والإمام أحمد في مسنده ١٩/٤-٢١، والحاكم في المستدرك ٥٢٨/٤

تقريبا بـ " الحمد لله فاطر السموات والأرض"[1]

بين يدي السورة

من الواضح أن القصص هو العنصر الغالب على هذه السورة وهي: أصحاب الكهف، قصة أصحاب الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وأبليس، وفي آخرها قصة موسى والعبد الصالح، وفي نهايتها قصة ذي القرنين، تستغرق هذه القصص معظم آيات السورة حيث تغطي إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية، وما تبقّى تعليق أو تعقيب على القصص، وإلى جانبها مشاهد للقيامة والحياة لتصوير معنىً أو فكرة ...

إن قصص السورة تعبر عن الصراع بين نظرتين: بين الإيمان بالمادة وما يتبعها، وبين الإيمان

بالغيب والإيمان بالله وما يتبع كل نظرة من العقيدة، والعمل، والأخلاق، والنتائج، والآثار، وتحذير من اتخاذ النظرة الأولى التي تؤمن بالمادة والظاهر، وتكفر بالله والغيب[2].

ويستخلص المرحوم سيد قطب المحور الموضوعي للسورة الذي يربط موضوعاتها، وهو: تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة ... فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها، ففي البدء قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا {١} قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا {٢} مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا {٣} وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا {٤} مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ الكهف ١-٥. وفي الختام ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ آية: ١١١. وهكذا يتفق البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك وإثبات الوحي. ويؤكد هذا المبدأ في سياق السورة، وفي التعقيب على كل قصة ففي قصة أصحاب الكهف قول الفتية: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾

[1] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، م٤، ١٥/ ٢٤٤-٢٤٥.

[2] - ظبيان محمد تيسير.(١٩٧٨)، أهل الكهف وظهور المعجزة الكبرى،القاهرة،دار الاعتصام،ص ١٨٦ .

الكهف: ١٤، وهكذا في كل المواقف في ثنايا السورة.[1]

أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم مثل قوله: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا {٤} مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ..﴾ آية ٤-٥، وقوله عن الفتية ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ﴾ آية ١٥، وفي ثنايا القصةإنكار على من يتحدثون عن عددهم رجماً بالغيب مع التصحيح ، وفي قصة موسى مع العبد الصالح يكشف له سر تصرفاته ﴿.وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي.﴾ الكهف: ٨٢، فيكل الأمر فيها لله.

وأما تصحيح القيم بميزان العقيدة فيرد في مواضع متفرقة حيث يرد القيم الحقيقية إلى الإيمان والعمل الصالح، ويوضح نظرة الإسلام إلى الكون والحياة، مثل كون كل ما على الأرض من زينة إنما هي للابتلاء، ونهايتها إلى زوال، ومثل الخطاب للرسول ليصبر نفسه مع أهل الإيمان، وفي قصة الجنتين تصور كيف يعتز المؤمن بإيمانه في وجه المال والجاه والزينة، ثم يضرب مثلاً للحياة الدنيا وسرعة زوالها: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ الكهف: ٤٥، ثم يعقب عليه ببيان القيم الزائلة والقيم الباقية ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ الكهف:٤٦، وهكذا إلى نهاية السورة التي تقرر أن أخسر الخلق أعمالاً هم الكفار...[2]

والمتأمل للسورة يجد أن قصصها المتنوعة تضمنت كل واحدة منها فتنة دنيوية ودينية بنفس الوقت، وربما فتن مركبة ولكن تبرز فيها فتنة أساسية يركز السياق عليها، ابتلاءات وامتحانات تواجه البشرية خلال مسيرتها، بل لا نبالغ إذا قلنا أن سورة الكهف اشتملت على أهم هذه المحن وأجلها والتي تؤدي إلى مواجهات بين البشر، مع بيان كيفية

[1] - راجع: سيد قطب. (١٩٩٢). في ظلال القرآن ،ط١٧، بيروت، دار الشروق ٤/٢٢٥٧-٢٢٥٨

[2] - راجع سيد قطب ، في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٥٧ (بتصرف)

معالجتها واثبات جانب الصواب فيها، موجهة بأخذ العبرة منها بأسلوب شيق يتضمن حوارات واشارات تهدف في نتائجها إلى مواعظ جمة، وحكم بالغة، فلا غرابة إذن أن يكون لها كل هذا الفضل لأن قراءتها المتواصلة قراءة تدبر وتأمل تضع أمام المسلم منهجاً ربانياً قويماً لحياته، فهي تمده بالعبرة من خلال اسلوبها الرائع المعجز في تصوير المواقف الخاطئة وتصحيح المفاهيم، والتأكيد على المواقف الصائبة، وخصوصاً أن هذه الابتلاءات التي نجدها في ثنايا السورة هي سنة من سنن الحياة وقانون الله فيها لا يتغير، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ الإنسان:٢، وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ الأنبياء:٣٥، والهدف من قانون الابتلاء الإلهي هو التمييز والتمحيص والذي على أساسه يكون مآل الإنسان وعاقبته، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ آل عمران:١٧٩.

ولما كانت سورة الكهف مليئة بكهوف معنوية، فهي كذلك مليئة بمواعظ وتوجيهات، وهذا هو السر في هذه السورة تجعل قارئها في عصمة من أعتى الفتن، فيسن قراءتها كل جمعة لكي يستحضر المسلم عبرها فيمتثل حكمها وفوائدها.

وهذه القصص تمثل أبرز الفتن الدنيوية وهي على الإجمال:

١- فتنة الدين ممثلة بقصة أصحاب الكهف: وهي قصة لشباب مؤمن كانوا يعيشون في بلد كافر ففروا بدينهم، وكافأهم الله برحمته ورعايته -كما سنرى في سياق البحث- استيقظوا بعد نوم طويل ، ضرب الله فيه على آذانهم سنين عديدة ، فوجدوا القرية مؤمنة بكاملها.

٢- فتنة المال والولد ممثلة في قصة صاحب الجنتين: قصة لرجل أنعم الله عليه، فطغى وتجرأ على الله ولم يشكر نعمه رغم تذكير صاحبه، فكانت النتيجة أن عاقبه الله بهلاك الزرع والثمر فندم حين لا ينفع الندم.

٣- فتنة العلم ممثلة بقصة موسى والخضر: لكون موسى وإن كان نبيا قد ذهب ليأخذ العلم من الرجل الصالح، وبيان أن الحكمة تغيب أحيانا ولكن مدبرها حكيم، محال في حقه العبث، كما في خرق السفينة وقتل الغلام...

٤- فتنة السلطة ممثلة في قصة ذي القرنين: قصة الملك العظيم الذي جمع بين العلم والقوة، وطاف الأرض يساعد الناس وينشر العدل، وتغلب على مشكلة يأجوج ومأجوج ببناء السد، واستطاع توظيف طاقات قوم لا يكادون يفقهون قولاً.

وفي الوسط بين تلك القصص الأربع يأتي الكلام على إبليس للتذكير بأنه محرك الفتن، وتظهر المحصلة ببيان سبل النجاة في مواجهة تلك الفتن بالصحبة الصالحة في مواجهة الفتنة في الدين من خلال قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ آية: ٢٨، ومعرفة حقيقة الدنيا في مواجهة فتنة المال والأولاد، من خلال قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ آية:٤٥، والتواضع للعالم في فتنة العلم، من خلال قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ آية: ٦٩، والإخلاص لصاحب السلطة لمواجهة بريق السلطة من خلال قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ آية: ١١٠.

فالسر إذن من قراءة الكهف في كل جمعة يكمن في دورها في تبصيرنا بفتن الدنيا وسبيل النجاة منها، ولها الفضل بالعصمة من المسيح الدجال.

ويتضح من ذلك علاقة سورة الكهف بالدجال وهو: أن فتنة الدجال اختزلت الفتن الأربعة التي ذكرتها السورة، لأن الدجال سيظهر قبل القيامة بالفتن الأربعة:

- **في الدين**: يطلب من الناس عبادته.
- **في المال**: سيأمر السماء بالمطر ويفتن الناس بما في يده من أموال..
- **في العلم**: بما يخبر به الناس من أخبار.
- **في السلطة** : يسيطر على أجزاء كبيرة من الأرض.

ولذلك ذكر الرسول ﷺ أن قراءة الكهف تحمي من الوقوع في فتنة الدجال على اعتبار أن فتنته تجمع كل الفتن.

ويجيب الأستاذ الندوي في رسالته (تأملات في سورة الكهف) عن السر في أن هذه السورة أو بعضها يعصم من الدجال فيقول: "..بأن هذه السورة هي السورة القرآنية الفريدة التي تحتوي على أكبر مادة وأغزرها فيما يتصل بفتن العهد الأخير التي يتزعمها الدجال، ويتولى كبرها، ويحمل رايتها، وتحتوي على أكبر مقدار من الترياق الذي يدفع سموم الدجال ويبريء منها، وأن من يتشرب معاني هذه السورة ويمتلىء بها – وهو نتيجة الحفظ والإكثار من القراءة في عامة الأحوال– يعتصم من هذه الفتنة المقيمة المقعدة للعالم، ويفلت من الوقوع في شباكها، وأن في هذه السورة الكريمة من التوجيهات والارشادات، والأمثال والحكايات ما يبين الدجال ويشخصه في كل زمان ومكان، وما يوضح الأساس الذي تقوم عليه فتنته ودعوته، وتهيء العقول والنفوس لمحاربة هذه الفتنة ومقاومتها، والتمرد عليها، وإن فيها روحاً تعارض التدجيل وزعماءه، ومنهج تفكيرهم، وخطة حياتهم في وضوح وقوة"[1]

وهكذا فهو يرى أن السورة تخضع لمحور وموضوع واحد سماه " بين الإيمان والمادية"، فهي وإن كانت قد نزلت في القرن السادس الميلادي لكنها تحمل صورة صادقة لمدنية القرن العشرين.[2]

أما الدكتور فضل حسن عباس فيرى أن القصص المتعددة الأغراض تشكل قاعدة تربوية عريضة، جاءت لتهدي المسلمين في الحياة إلى سبل الخير علاوة على الأجر في قراءتها فقال: "إن إرشاد النبي ﷺ لقراءة بعض سور القرآن ليس الهدف منه أخرويا فحسب، أي لكون القارئ لهذه السور يحصل له أجر أكثر من قراءته لغيرها، فإن القرآن كله خير، وكل حرف منه فيه عشر حسنات في سور القرآن كلها، ولكن الذي فقهه من الأحاديث التي تحث على قراءة بعض السور، هو أن لهذه السور هدفا آخر يتصل بإرشاد المسلمين في هذه الحياة.."[3]

---

[1] – الندوي أبو الحسن علي الحسني (١٩٩٧م)، الصراع بين الإيمان والمادية، تأملات في سورة الكهف، دمشق، دار القلم ص ٩.

[2] – راجع المصدر السابق، ص ١٠.

[3] – فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، الأردن: دار النفائس ٢٠٠٧م ص ٧٣٩.

البشارة والإنذار في سورة الكهف

نزلت السورة قبيل الهجرة إلى المدينة المنورة، وتضمنت إجابة ما طلبه المشركون في مكة من النبي ﷺ من خبر الفتية المؤمنين الذين عاشوا في الزمن الماضي "أصحاب الكهف" وخبر الرجل الذي جاب الأرض شرقاً وغرباً "ذي القرنين، وجاء في السورة خبر موسى عليه السلام مع الرجل الصالح. وهو الأمر الذي لم يطلبه اليهود، وكأن في ذكر هذا الخبر إشعاراً لليهود بأن عليهم أن يكونوا أكثر تواضعاً، ويعلموا أن ما اقترحوه على المشركين من أسئلة للتأكد من صحة نبوة محمد ﷺ، يلزمهم مثلها فيما أخبرهم به من شأن موسى عليه السلام مما لا يعرفه غيرهم، وبذلك تلزمهم الحجة كما لزمت المشركين، بعد أن أخبر الله كلا الفريقين بما لا يمكن معرفته إلا عن طريق الوحي والنبوة.

وقد جاءت السورة تلبية لحاجة الدعوة الإسلامية الناشئة ومتطلباتها الملحة، وذلك بعد أن بدأت صراعها مع المجتمع الجاهلي من حولها، وغدت أحوج ما تكون إلى التوجيه لترسيخ القيم الإسلامية الجديدة، فكانت السورة في جملتها بشارة للمؤمنين برحمة الله لهم ونصره، وإنذارًا للكافرين ببأس الله وعذابه، والهزيمة التي تنتظرهم على أيدي المؤمنين، وتتجلى البشارة والإنذار في قصص السورة، وفي مشاهد القيامة سواء بسواء، فتشمل الحياة الدنيا كما تشمل الحياة الآخرة.

ففي قصة أصحاب الكهف يرى المؤمنون بالنبي ﷺ أنفسهم في موقف الفتية الذين آمنوا بربهم من أهل الكهف، وهم يستروحون عبير الرحمة الإلهية ينشرها الله في أرجاء كهفهم، بعد أن فارقوا قومهم المشركين وما كانوا يعبدون، حيث هجروا زينة الحياة الدنيا طلباً لمرضاته ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً ﴾ الآية: ١٦، كما يرى مشركو مكة أنفسهم في موقف المشركين المعاصرين لأهل الكهف، والذين قام أهل الكهف ينكرون عليهم شركهم ويدعونهم إلى عبادة الله الواحد ﴿هَـؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ الآية: ١٥.

كذلك يستبشر المؤمنون بالنبي ﷺ بنصر الله لهم حين يعلمون أن دولة الشرك التي اضطهدت أهل الكهف قد زالت من الوجود، على حين يرى المشركون في ذلك إنذاراً لهم بالهزيمة المتوقعة، وسوء العاقبة في صراعهم مع المؤمنين بمحمد ﷺ.

وفي التعقيب على القصة يرى المشركون أنفسهم وقد أحاط بهم العذاب كما يحيط السوار بالمعصم: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ الآية: ٢٩، كما يرى المؤمنون أنفسهم وقد أخذوا جزاء إحسانهم إحساناً، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً * أُوْلَـئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَآئِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ الآية: ٣٠ – ٣١.

كذلك يرى المؤمنون أنفسهم في موقف الرجل المؤمن الفقير الصابر الناصح، في حين يرى المشركون أنفسهم في موقف صاحب الجنتين المتكبر، الظالم لنفسه، المعتز بماله وولده وجاهه، المغتر بدنياه الغافل عن أخراه، كما يرى كل فريق عاقبته فيما آل إليه صاحبه من مصير.

وفي قصة موسى مع الرجل الصالح نرى البشارة بالرحمة للمؤمنين تتبدى في مواقف ذلك الرجل الذي ساقه الله ليكون رحمة للضعفاء والمساكين، فقد خرق السفينة رحمة بأصحابها المساكين فلا يأخذها الملك الظالم، وقتل الغلام رحمة بأبويه المؤمنين، كي لا يرهقهما طغياناً وكفراً، ولأن الله سيبدلهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما. وأقام الجدار بلا مقابل رحمة باليتيمين، حتى يبلغا أشدهما، ويستخرجا كنزهما، في حين نرى الإنذار بالعذاب وسوء العاقبة للمشركين يتبدى في عدم تمكين الظلمة من تحقيق أغراضهم، وتفويت الفرص عليهم، سواء كان الظالم في صورة ملك جائر، أو غلام كافر، أو غاصب فاجر. وإنما تحقق كل ذلك بفضل تلك المواقف التي وقفها ذلك الرجل الصالح.

ثم تأتي قصة ذي القرنين، وهي في جملتها بشارة للمؤمنين المستضعفين: أن

ما هم فيه من ضعف لن يدوم، وأنه مرحلة لابد منها في طريق التمكين في الأرض الذي وعدهم الله به، وأن عليهم إذا مكن الله لهم أن يسيروا بسيرة ذي القرنين، فهو الحاكم العادل المؤمن الذي ينشر رحمة الله بين عباده.

ويأتي التعقيب الأخير يعرض مشاهد من القيامة فيها الإنذار للكافرين: ﴿ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُوۤاْ آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾ الآية: ١٠٦، وفيها البشارة للمؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ الآية: ١٠٧. وفيها دعوة إلى عبادة الله وتوحيده، والإيمان بالآخرة، لأنه الطريق الوحيد الموصل إلى جنة الله ورضوانه.[1]

مقدمة السورة

بما أن للعقائد أهميتها الكبيرة، ولها الأولوية في التصحيح، حيث إن العمل الصحيح يتوقف على عقيدة صحيحة راسخة، وهذا ما أكد عليه القرآن المكي كهذه السورة، كما أن أهم الأهداف للقصص القرآني هو تصحيح العقيدة وإثبات التوحيد، لهذا كله نجد أن السورة تبدأ بآيات تتناسب مع خاتمة السورة السابقة لها وهي سورة (الإسراء) بالحمد لله وتقرير وحدانيته بلا ولد ولا شريك، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي والنصير ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ الإسراء: ١١١. وكذلك تبدأ الكهف بالحمد لله على إنزاله الكتاب على عبده، لا عوج له ولا التواء، تأكيداً على مبدأ الاستقامة ... والآية تشير إلى وضوح العقيدة وبساطتها، فالله منزل الكتاب على عبده ونبيه محمد ﷺ، ثم يؤكد على استقامة الكتاب بعد أن قال: لا عوج فيه "قَيِّماً " تأكيداً للمعنى، أي تقوم به حال البشرية ويصلح حالها. يقول أبو السعود: "أي شيئا من العوج بنوع اختلال في النظم وتناف في المعنى، أو انحراف عن الدعوة إلى الحق وهو في المعاني كالعوج في الأعيان.."[2]

---

[1] انظر: أحمد فرحات في افتتاحية مجلة الشريعة بالكويت العدد، مجلد (٧)، العدد. (١٦)، مارس – ١٩٩٠م

[2] أبو السعود، تفسيره "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، ٣/ ٣٥٩.

والعوج ضد الاستقامة، ويطلق مجازاً على الانحراف عن الصواب ... والمقصود بهذه الجملة المعترضة أو الحالية ابطال ما يرميه به المشركون من قولهم: "افتراه، أساطير الأولين، وقول كاهن" لأن تلك الأمور لا تخلو من عوج .. فالمعنى: أنه يتصف بكمال أوصاف الكتب من صحة المعاني والسلامة من الخطأ والاختلاف... والقيم: المراد به هنا أنه قيم على هدي الأمة واصلاحها ... [1]

والغرض من ذلك ﴿لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ آية:٢، فيها الترغيب والترهيب، ثم يخصص ذلك الترهيب والانذار ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ الآية: ٤. ويلاحظ أن كلمة "لدن" تكررت في سورة الكهف أربع مرات، (آية: ٢، ١٠، ٦٥، ٧٦)

ثم يبين منهج القوم الفاسد في الحكم على أخطر القضايا وهي العقيدة بغير علم ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾ آية:٥.

وبعدها يتوجه الخطاب للرسول ﷺ ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ الآية:٦، فلا يستحق هؤلاء الحزن والتأسف عليهم، فدعهم فقد جعلنا ما على الأرض من زخرف ومتاع وأموال وأولاد اختباراً لأهلها ليتميز من من يحسن العمل من غيره ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ آية :٧، ولكن نهاية هذه الزينة زائلة، فسوف تعود الأرض مجردة من كل هذه الزينة ويهلك أهلها وما عليها ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ آية:٨.

يقول ابن عاشور في تفسيره للآية: "وكأن هذا الكلام سيق إلى الرسول ﷺ في آخر أوقات رجائه في إيمانهم إيماءً إلى أنهم غير صائرين إليه، وتهيئة نفسه أن تتحمل ما سيلقاه من عنادهم رأفةً من ربه به ولذلك قال: ﴿يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ بصيغة الفعل المضارع المقتضية الحصول في المستقبل أي: أن يستمر عدم إيمانهم "[2] .

[1]- ا بن عاشور الطاهر (د.ت) ، التحرير والتنوير تونس، دار سحنون، ٧/ ٢٤٨

[2]- ابن عاشور، ٧ /٢٥٥

ونظرة تأمل لهذه المقدمة نجد أن الهدف الأساس لهذه السورة كذلك هو الحث على الدخول في الإسلام، وأن الذي يمنعهم منه هو زينة الحياة الدنيا وزهدهم في الآخرة وانتقاصهم لأهلها بسبب غفلتهم عن الله.

وإذا كانت زينة الحياة الدنيا هي أخطر صارف عن الدخول في الإسلام، وإذا كانت سورة الكهف تعالجه بطريقة مدهشة، مربية موجهة، ومقنعة، فقد سن للمسلمين قراءتها كل جمعة وحفظ أولها وآخرها... [1] ولذا يلاحظ كثرة استعمال كلمة "الرحمة" في السورة حيث وردت ست مرات. [2]

وبعد هذه المقدمة تبدأ السورة بالقصص، ولا يخفى على أحد أن الهدف الأساس هو الفائدة وأخذ العبرة كبقية قصص القرآن حيث توحي للقارىء بإشارات وتوصل له رسائل بليغة من سير الأقدمين، للاقتداء بالصالحين والاهتداء بمواقفهم الجليلة في مواجهة فتن الحياة بصورة مستمرة بالحث على قراءتها المتواصلة كل جمعة، ولا أدل على ذلك من عدم ذكر اسماء أبطال هذه القصص، وفي هذا يقول الشعراوي: "في القرآن الكريم نلاحظ أن القصص التي يرويها والأمثلة التي يضربها أخفى الله سبحانه وتعالى عنا أسماء أبطالها الحقيقيين، كما أخفى عنا زمان حدوثها وذلك لأن قصص القرآن الكريم مقصود بها العبرة وليس القصة نفسها" [3]، وهو لا يقصد بالطبع كل قصص القرآن لأن قصص الأنبياء ترد بأسمائهم، وإنما بعض قصص الصالحين وبالأخص ما ورد في سورة الكهف من قصة أهل الكهف وقصة الجنتين، وذلك لأن هذه القصص تتكرر في كل زمان ومكان، فالأسماء غير مهمة بل العبرة منها.

وينتقل السياق إلى القصة الأولى " أهل الكهف"، ومناسبة الانتقال تتصل بقوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ إذ كان مما صرف المشركين عن الإيمان إحالتهم الإحياء بعد الموت، فكان

[1]- راجع سعيد حوى (١٩٨٩) ، الأساس في التفسير، ط٢ القاهرة، دار السلام، ٦ /٣١٤٩

[2] والآيات: ١٠، ١٦، ٥٨، ٦٥، ٨٢، ٩٨.

[3]- الشعراوي. محمد متولي (١٩٩٥) ، القصص القرآني في سورة الكهف، مؤسسة اخبار اليوم ص ٤

ذكر أهل الكهف وبعثهم بعد خمودهم سنين طويلة مثالاً لإمكان البعث.

قصة أصحاب الكهف

إن هذه القصة في القرآن الكريم مثالٌ للقصة الكاملة على الرغم من ايجازها الشديد وما اتسمت به من التجريد، وما يتعلق بتفاصيل المشاهد كأسماء الأشخاص والأماكن في مقابل التركيز على العبرة من خلال البواعث والمشاعر... كما يلاحظ عدم تكرار هذه القصص أو شيء منها في بقية سور القرآن الكريم كما هو شأن القصص الأخرى.

وقد وردت القصة في ثمانية عشرة آية من الآية (٩-٢٦)، ولكنها غنية بالعبر والمواعظ، فالعبرة ليست بالطول أو بالقصر بل بما تدل عليه الكلمات والملابسات والمفاجآت أو ما يسمى (عقدة القصة)، وهذا من إعجاز القرآن الكريم في الوصول إلى الهدف بقصة متكاملة بآيات قلائل.

وفي القصة - كغيرها من قصص القرآن- وجه من وجوه الإعجاز بالإخبار عن أحداث قديمة لا علم للرسول ﷺ بها، وما كان لغيره من أهل الكتاب من علم فهو مشوه وزائف.

والقصة كذلك مستوفية شروط القصة أو مواصفاتها، فقد ذكرت الآيات الأولى ملخصاً كاملاً للقصة ثم بدأت التفاصيل الهامة بعدها، وهو أسلوب فريد قد لا يستطيعه كل كاتب، وأمر آخر وهو أن المحققين التاريخيين وجدوا أن قصة أصحاب الكهف تختلف فيها معجزتهم عن غيرها من المعجزات في القرآن، وبخاصة من حيث قابليتها للخضوع للتحقيق التاريخي، ففيها من الدلالات ما تعجز الصفحات الطوال عن تصويره وتجسيمه، حيث يقول أحد الذين عنو بذلك: "وهي وإن كانت مرتبطة بالمعجزة فإنها وقائع يمكن اخضاعها للتحقيق التاريخي، وربطها بمكان وزمان معينين، مثال ذلك ذكر الفتية لرجم قومهم لهم إذا عثروا عليهم، فالرجم كعقوبة كانت توقع على من يخرج على دين الجماعة، وكانت مطبقة في مجتمع بعينه من المجتمعات التي كانت قائمة وقت أن حدثت وقائع أصحاب الكهف، كذلك ما ذكره الفتية عن رفضهم أن يدعوا إلهاً آخر من دون الله، ثم ذكرهم لمايعبده قومهم من آلهة أخرى مع الله، الذي استثنوه في رفضهم عبادة ما يعبده قومهم، يدل على وجود دينين

يتصارعان في مكان والزمان، أحدهما يعبد فيه الله على غير حقيقته، والآخر يعبد فيه الله مع غيره، فمتى كان ذلك؟ وأين كان؟"[1]

القصة في مصادر أهل الكتاب:

إذا تدبرنا قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ...﴾، وجدنا الآية تشير إلى أن الحق في معرفة قصة أصحاب الكهف هو القرآن، وتلمح إلى أن هناك من يقص هذه الواقعة بغير الحق، ولو تتبعنا، ما جاء عنها في كتب أهل الكتاب لوجدنا أن هناك أخبارًا عنهم تتعارض مع القرآن الكريم.

ففي المصادر اليهودية وكتبهم الدينية لم يرد ذكر للقصة قط، علماً أنهم يعرفونها، بدليل ما ورد في سبب نزولها من أنهم أشاروا على قريش أن يسألوا النبي ﷺ عن فتية ذهبوا في الدهر، أما التحقيق في عدم ذكر اليهود لها فهذا كلام يطول شرحه يمكن مراجعتها في كتب تتبعت الموضوع وخلاصتها أن هؤلاء الفتية كانوا يهوداً وآمنوا بعيسى عليه السلام وبالتوحيد الحق فاضطهدوا من قبل اليهود وأهل التثليث فأووا إلى الكهف ولذلك أهملتهم الروايات اليهودية، مما يدل على خبثهم وسوء طويتهم وعاقبوهم بالتجاهل وتحريم ذكرهم وتعمدوا أن تخلوا أسفارهم من أي إشارة إلى الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول، وعدم وجودها عندهم في تراثهم لا يعني عدم وقوعها، خاصة ما يعرف عنهم في تزوير التاريخ والحقائق لمصالحهم وافترائاتهم[2].

أما في المصادر المسيحية فقد وردت في الكتب المسيحية،وهي من أحب القصص الدينية عندهم؛ لدلالتها على أتباع المسيح الأولين وقوة إيمانهم وتفانيهم في سبيل العقيدة والمبدأ.

ووردت في تراثهم تحت أسم: النيام السبعة أو (نيام أفسوس[3] السبعة)

---

[1]- المجدوب، احمد علي، أهل الكهف في التوراة والإنجيل والقرآن، ١٩٩٦، ط٢ الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ص١٧-١٨.

[2]- راجع التفاصيل عند المجدوب، أحمد علي، أهل الكهف في التوراة والإنجيل والقرآن، ص٥٧ وما بعدها.

[3] ذكرت بعض كتب التفسير، ونقل عنهم بعض من ألف في قصص القرآن أن هؤلاء الفتية من "أفسوس" بلد بثغور طرطوس، وهؤلاء الفتية كانوا من أشرافها ولكنهم على غير دين الملك، فلما عرفوا بما يدبره لهم الملك بأن يفتنهم في دينهم

وملخصها تعرض المسيحيون لاضطهاد المشركين من الحكام والإمبراطور وكانوا هؤلاء السبعة من النبلاء ذهبوا في كهف جبل في المدينة فأمر الإمبراطور بإغلاق الكهف عليهم فناموا في سبات عميق وبصورة معجزة إلى أن فتحوا الأحجار ودخل ضوء الشمس فأيقظهم... إلى آخر القصة. ويلاحظ أنها تناقض ما جاء في القرآن من الحقائق وخصوصاً بعد أن أجرى المختفون المسلمون بحوثاً وجدوا أن هذه القصص مختلقة لا تصمد أمام التحقيق التاريخي، ووضوح التزوير فيها حيث إن المسيحيين سمعوا بالقصة الحقيقية فزوروها وأقحموها في تراثهم لأغراض مشبوهة، وقد تحداهم القرآن في هذه السورة بحقائق تراجع في مظانها من الكتب[1].

والخوض بتفاصيل ذلك بعيد عن هدف البحث.. وللأسف نقل بعض المفسرين الكثير من الإسرائيليات عن هذه القصة التي لا فائدة منها ولنا في القرآن ما يكفي لأخذ العبرة والموعظة التي هي الهدف الأساس من ورودها في القرآن الكريم وخصوصاً بعد أن نبهنا القرآن في سياق القصة إلى رد العلم إلى الله سبحانه وتعالى.

المناسبة بين مقدمة السورة والقصة:

تأتي هذه القصة في سياق سورة الكهف، وفي إحدى السور المكية التي تهدف إلى وضع الأساس العقدي والفكري للمجتمع المسلم.

جاء في مقدمة السورة الحمد والثناء على مول الكتاب ثم الابتداء بقصة أهل

---

[1]- راجع التفاصيل عند الخطوب: الخطوب أحمد علي، أهل الكهف في التوراة والإنجيل والقرآن، ص ١٩ و ١٨٨-١٩٦. وانظر أيضاً: حسان، محمد تيسير، أهل الكهف، ص ٥٧-٦٤. وقد أجرى المؤلف تحقيقاً علمياً تاريخياً أظهر فيه تزوير النصارى للقصة ومكانها ومدة اللبث ورجح أن المكان الحقيقي في الأردن قريباً من عمان والكهف على سفح جبل قليل الارتفاع (يسمى جبل الرقيم) وتنطبق عليه المواصفات المذكورة في القرآن الكريم بإمكانية دخول الشمس عن اليمين والشمال وتسمى المنطقة الآن الرجيب وهي تحريف لكلمة الرقيم.

الكهف ما يشير إلى أن في هذا الكتاب وسنة نبيه طريق السلامة والنجاح، وأمان للإنسان من فتن الحياة الدنيا، كما كان كهف الجبل سبباً لسلامة أصحاب الكهف من كيد الكافرين ومكرهم، وكما تشير الآية التي ختمت القصة ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ الكهف: ٢٧، أي ملجأ وماوى.

سبب نزول آيات القصة

ورد في سبب نزولها ونزول قصة ذي القرنين أن اليهود أغرو أهل مكة بسؤال الرسول ﷺ عنهما وعن الروح، أو أن أهل مكة طلبوا إلى اليهود أن يصوغوا لهم أسئلة يختبرون بها الرسول ﷺ وقد جاء في أول قصة ذي القرنين ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾.

ذكر محمد بن اسحاق بإسناد عن ابن عباس قال: "بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وذكروا بعض أقواله، وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال فقالوا لهم سلوه عن ثلاث نأمركم بهن: فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم... فنزلت السورة[1].

ونستشف من سبب النزول، ومن القصة نفسها صورة الحق عندما يكون

---

[1]- ابن كثير، مختصر تفسيره للصابوني، ٤٠٨/٢. وقد ذكر ابن عاشور - بعد أن ذكر رواية سبب النزول - قولا آخر لمن أغرى أهل قريش بالسؤال فقال: " ويظهر أن الذين لقنوا قريشا السؤال عن أهل الكهف هم بعض النصارى الذين لهم صلة بأهل مكة من التجار الواردين إلى مكة، أو الرهبان الذين في الأديرة الواقعة في طريق رحلة قريش من مكة إلى الشام وهي رحلة الصيف" ولكنه لم يذكر لهذا القول دليلا، انظر تفسيره ١٥، ٢٥٩-٢٦٠.

مطارداً، وبياناً لبعض المعالم والركائز المنهجية للعمل الدعوي التغييري. ويمكن الاستفادة والاعتبار من معرفة سبب النزول وقصته أمور منها:

– الجهد الذي قام به النضر بن الحارث قائد الحملة الإعلامية ضد الدعوة الإسلامية وهو بقطع المسافات الطويلة مع عقبة بن أبي معيط للوقوف على خبر هذا الدين الجديد، وقد عرفت له جهود أخرى مناوئة للإسلام حيث نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ الأنفال: ٣١، عندما سافر إلى بلاد الفرس وتعلم القصص والأساطير.

– حرب التشويش والتشكيك التي مارستها قريش ضد الإسلام ونبيه، وهذا الاسلوب يتكرر ضد الدعاة وخصوصاً في الوقت الحاضر حيث تنصب كل الجهود الإعلامية الدولية لتجفيف منابع الإسلام وحربه بكل الوسائل ومن جميع الفصائل الحاقدة من علمانية وصليبية وصهيونية وغيرهم من المستشرقين وتلاميذهم من المنافقين، فما اشبه الليلة بالبارحة...

– اختيار قريش لشخصية رجل معين وهو النضر يجوب الأرض للتأليب على الدين الجديد ومقاومته، أي مراعاة التخصص لمن يقوم بهذه المهمة.

– موقف اليهود من الدعوة ومن صاحبها منذ نشأتها. والمفروض أنهم كانوا أولى الناس بالاستجابة له قبل غيرهم، ولكنهم كانوا ولا يزالون اشد الناس عداوة للمسلمين ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ المائدة :٨٢، وقد حملوا لواء الحرب ضد الدين بعد ظهوره ولا يزالون.

– في تأخر الوحي عنه ﷺ مدة ثم مجيء الجواب الشافي درس بألّا ينشغل الدعاة بالرد على حرب الشبهات ويضطره لأن يقع في موقع الدفاع، وينشغل عن مهمته الأساسية.

– في القصة دليل على صدق رسالة المصطفى ﷺ، فلو كان الأمر بيده لأتى بالرد سريعاً ولم يتأخر.

أحداث القصة ومشاهدها:

سأتناول أحداث القصة ومشاهدها حسب تسلسل الآيات باختصار مؤكدة على الفوائد والعبر منها. وقد تضمنت القصة مقدمة وعدة مشاهد كما يأتي:

مدخل ومقدمة إلى القصة:

بدأت القصة بعرض إجمالي لأهم ما فيها بآيات قلائل فقد جاء هذا الملخص الكامل للقصة في أربع آيات وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً {٩} إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً {١٠} فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً {١١} ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ آية ٩-١٢. ويعد هذا الأسلوب من روائع الاعجاز القرآني الذي لم يسبق إليه فهو أسلوب جديد في سرد القصص، وبعد الملخص يليه بيان التفاصيل الهامة وهو أسلوب "يتسم بالصعوبة ويحتاج إلى مهارة فائقة في استخدامه، لأنه قد يؤدي إلى فقدان القصة ذاتها لعنصر التشويق الذي يعد عاملاً أساسياً في نجاح القصة... ثم أصبح بعض كتاب القصص يستخدمونه ولكن على نطاق ضيق جداً يرجع إلى خوفهم من افقاد القصة عنصر التشويق"[1].

كما يرى سيد قطب أنه أسلوب متميز في العرض فيقول "فالطريقة التي اتبعت في هذه القصة من الناحية الفنية هي طريقة التلخيص الاجمالي أولاً ثم العرض التفصيلي أخيراً، وهي تعرض في مشاهد وتترك بين المشاهد فجوات يعرف ما فيها من السياق"[2].

ونستخلص من هذا العرض الإجمالي ما يلي:

– هي قصة قوم فروا من الطغاة الذين حاولوا أن يجبروهم على الكفر، فيفر هؤلاء بدينهم ويختبئون في الكهف. كما تعرض القصة نموذجاً للإيمان في النفوس المؤمنة كيف تطمئن به وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها، وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الياس، وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة ويقيها من الفتنة ويشملها بالرحمة.

– يبدأ العرض بقوله ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾، أي: لا تظن والخطاب قد يكون للنبي ﷺ، ويظهر أنه عام لكل من يصلح ان يخاطب، بأن قصة أصحاب الكهف ليست أمراً عجيباً في قدرتنا

[1] المجدوب. أحمد علي، أهل الكهف في التوراة والانجيل والقرآن، ص ١٧.

[2] سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٢٦١.

وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى وأنه لايعجزه شئ، أعجب من أخبار أصحاب الكهف، قال مجاهد: قد كان من آياتنا من هو أعجب من ذلك، وقال ابن عباس: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم[1]، ويستخلص الدعاة من هذه الآية فائدة "وفي هذا توجيه للداعية، ألاّ تشغله القضايا الجزئية عن أهدافه العظام، وألا تكون الجزئيات سبباً يعوق مسيره ويخلط أوراق أولوياته"[2].

ويرى ابن عاشور أن "أم" للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض.. ومناسبة الانتقال إليه تتصل بقوله : " فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً" إذ كان مما صرف المشركين عن الإيمان إحالتهم الإحياء بعد الموت، فكان ذكر أهل الكهف وبعثهم بعد خمود لهم سنين طويلة مثالا لإمكان البعث.[3]

– تدل الآيات على أنهم فتية ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ.. ﴾ فلم يكونوا ضعافاً ولا شيوخاً أو نساء بل فيهم شباب وفتوة، آمنوا بربهم فزادهم الله إيماناً وهدى.

– يستفاد من قوله "فِتْيَةٌ" أهمية الشباب في نشر الحق والدعوة لأن في مقدورهم ما لا يكون في مقدور الصغار أو الشيوخ.. "وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل"[4]، بل الآية تدل على أهمية هذه الفترة من عمر الإنسان فلها حكمها الخاص، وحيث أن فترة الشباب هي فترة الابتلاء الحقيقي حيث التطلع إلى زينة الحياة الدنيا، ولذلك كان من السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله "

[1] راجع مختصر تفسير ابن كثير ٤٠٩/٢.

[2] – حمدي شعيب،١٩٩٩، قطوف تربوية حول القصص القرآني ، لبنان/ طرابلس/ دار المنى ١٤٩/١

[3] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٥/ ٢٥٨.

[4] – العمري .أحمد جمال(١٩٨٦)، دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، مصر، مطبعة المدني، ص ٣٦٣.

وشاب نشأ في عبادة الله..."[1] ويستدل به من حديث عن الرسول ﷺ أن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة أمور منها "وعن شبابه فيما أفناه"[2]. كما حث على اغتنام عمر الشباب في قوله:" اغتنم خمساً قبل خمس ، حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك"[3]

– تدل الآية على أن هؤلاء الفتية معروفون لدى من حولهم، فبعد فراراهم بحثوا عنهم وكتبوا أسماءهم ورقموها في لوح[4] وهذا معنى "الرقيم" وهو الحجر الذي رقم عليه أنه رمز لمأواهم. قال سعيد بن جبير: لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف، وقيل الكتاب مثل قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ المطففين: ٩،١٠، وعن ابن عباس: أنه الجبل الذي فيه الكهف، وعنه هو واد قريب من أيلة.[5] والظاهر أنه الكتاب أو اللوح المكتوب عليه اسماؤهم وسميت المنطقة أو الوادي أو الجبل بعد ذلك باسمه، وقد ذكر أبو السعود – بالإضافة إلى الأقوال الأخرى – أن الرقيم كلبهم واستشهد بقول أمية بن أبي الصلت:

وليس بها إلا الرقيم مجاورا
وصيدهم والقوم في الكهف ههمد[6]

– قوله تعالى ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ أنهم بدأوا حين دخول الكهف والاختباء بالدعاء، سائلين الله رحمته ولطفه بأن يسترهم عن

[1] – البخاري، صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب الصدقة باليمين، ح(١٤٢٣)، ٤٤٠/١، ومسلم في صحيحه، في كتاب الزكاة، الباب الثالث رقم ٩١، والترمذي (٢٣٩١)، والنسائي٢٢٢/٨، والإمام أحمد ٤٣٩/٢ .

[2] – مقدمة الحديث" لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة..." رواه الترمذي (٢٤١٦) ، والمتقي الهندي، كنز العمال (٣٩٠١٢)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٩٤٦)

[3] – رواه البيهقي عن ابن عباس، في شعب الإيمان ح(١٠٢٤٨)، ٢٦٣/٧، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الرقاق ح (٧٨٤٥) ٣٤١/٤، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

[4] طهماز. عبد الحميد (١٩٨٧)، العواصم من الفتن في سورة الكهف، بيروت، دار المنارة ، ص ٤٨.

[5] راجع ابن كثير ٤٠٩/٢.

[6] أبو السعود، تفسيره ، ٣٦٣/٣.

قومهم، ويدل دعاؤهم على قوة إيمانهم وثقتهم بالله، وعلى صدق التوجه والتوكل، فلم يستعينوا بغيره بل كان طلبهم من الله أن يتزل عليهم الرحمة ويهيئ لهم من أمرهم الرشد أي وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً، أو اجعل عاقبتنا رشداً.

ومثل ذلك جاء في قول النبي ﷺ: "وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً" وفي دعائه "اللّهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة".

-وفي كلمة "الإيواء" تصوير بياني بديع ، كأنهم كانوا يعيشون حالة من القلق والاضطراب النفسي ألمّ بالروح ،وحينما دخلوا الكهف وجدوا فيه طمأنينتهم، كيف لا وهم يناجون ربهم أن يؤتيهم من لدنه رحمة خاصة بهم تمدهم بالثبات على الحق ،وتزيل من نفوسهم مظاهر الاضطراب وأسباب القلق، وأن يهيئ لهم من أمرهم رشدا يثبت العقيدة في قلوبهم..[1]

- قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أي : ألقينا عليهم النوم سنين كثيرة، أو: ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع فلا يسمعون شيئاً يوقظهم.[2] وقد يراد من الضرب معنى الوضع كقوله تعالى:﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ البقرة: ٦١، أي وضعنا على آذانهم غشاوة أو حائلاً من السمع.

وقيل: أي أثناهم على طريقة التمثيل المبني على تشبيه الإنامة الثقيلة المانعة عن وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها، وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحجب عن الشعور عند النوم، لما أنها المحتاج إلى الحجب عادة، إذ هي الطريقة للتيقظ غالبا لا سيما عند إنفراد النائم واعتزاله عن الخلق، وقيل: الضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة وحمله على تعطيلها.[3]

فالآية تتضمن إعجازاً علمياً وبلاغياً، فالنائم يحتاج إلى هدوء كامل حوله، لأن أعضاء الجسم تنام ما عدا الأذن فهي متيقظة لا تنام أبداً، وهي آلة

[1] فضل عباس ص ٧٤١.

[2] - طهماز عبد الحميد، العواصم من القصص في سورة الكهف ، ٥٥.

[3] أبو السعود، تفسيره، ٣/٣٦٣-٣٦٤.

الاستدعاء من النوم إلى اليقظة. فكان هدوء الكهف، أراد الله أن يحفظهم من كل الأصوات فضرب على آذانهم أي جعلها لا تعمل وعزلهم عن كل الأصوات، ولو تركها كما هي لما استطاعوا النوم.[1]

أما البلاغة فيها: فالتعبير يعتمد على التصوير الحسي تقوية للمعنى وتثبيتاً له في النفس، يقول الرماني في الكشف عن سر الجمال في التعبير القرآني عن هذه الآية قائلاً: "منعناهم من الإحساس بآذانهم من غير صم، والاستعارة أبلغ، لأنه كالضرب على الكتاب فلا يقرأ، كذلك المنع من الإحساس فلا يحس، فكان الاستعارة في الآية قصدت إلى هذا التصوير السمعي، وإبراز فقدان حاسة السمع في الصورة دون سائر الحواس، ودون الدلالة على الصمم النهائي"[2].

وعلى أي حال فقد أوقع عليهم النوم العميق بحيث تنقطع الآذان عن كل ما يصل إليها من حركة هذه الحياة مدة طويلة من الزمن سنين عددا.

- في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ دليل على وجود فئتين مختلفتين حول هذه القصة، فكان العبرة من إيرادها هو إثبات الحقائق وقطع دابر الشك والخلاف والجدل الذي يدور حول مدة لبثهم، "أي بعثناهم حكم كثيرة منها ليظهر اختلاف الحزبين في المدة التي لبثها أولئك في كهفهم، والحزبان يظهر أنهما أهل الكهف أنفسهم وقد اختلفوا في مدة لبثهم ، وقد يكون الحزبان المؤمنين والكافرين"[3].

وإلى هنا ينتهي مدخل القصة ... فهو مدخل مشوق لمعرفة تفاصيل أخرى.

ويمكن الاستفادة من هذه المقدمة لغرض تربوي دعوي وهو حسن الاستهلال ولجميع الأفكار لعرض الموضوع بشكل مشوق يشنف الآذان ويجذب القلوب، ونرى هذا الأسلوب مستعملاً في كثير من الموضوعات القرآنية والخطب البلاغية للوعاظ. ومن القديم كان العرب يتجلبون ويحفظون

[1] - الشعراوي ، ص ١٧- ١٨

[2] - الرماني ، الشكت ص ٩٤، نقلاً عن : أحمد سيد صقر ،١٩٩٨ ، نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم ، دمشق ، دار الفكر، ص ٢٤٩

[3] فضل حسن عباس، قصص القرآن، ص ٧٤١

مطالع السنفات والقصائد المشهورة، وكانت تلك المطالع في موضوع الغزل العذري لتشويق السامعين وجلبهم وتركيز انتباههم.

ثم يبدأ التفصيل لأحداث القصة بمشاهد عدة وهي:

المشهد الأول (سمة أهل الكهف وتحيهة حمايهم إليه)

يعرض هذا المشهد الآيات التالية، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى [١٣] وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا [١٤] هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا [١٥] وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

تحليل المشهد:

- يؤكد أول المشهد "نحن" أن ما سيقصه القرآن هو الفصل في الروايات المتضاربة، وأنه الحق، فليس للحق بين هذه الروايات المتناقضة إلا مصدر واحد وهو القرآن الكريم، الذي لا شبهة فيه، والحق الذي هو بعيد عن الخيال.

والحق هنا الصدق، والصدق من أنواع الحق، ومنه قوله تعالى: " حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ " الأعراف: ١٠٥، والباء للملابسة، أي: القصص المصاحب للصدق لا للخرافات.[٥]

- في قوله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ كلمة (عليك) تشعر بالأنس وبملكانة والقرب من الله سبحانه وتعالى لحبيبه ونبيه محمد ﷺ، وأن المتلقي من الله مصدر واحد لا يتعدد وفيه لفتة تربوية لتكريم العلاقة بين الداعية والمدعو، بأن يستشعر المدعو قربه ومكانته في قلب الداعية، وكسر الحاجز النفسي بينهما.[٦]

- في تكرار وصفهم بـ(الفتية)، مع التأكيد يشعر كذلك بروح الجماعة، فهم جماعة التفت على فكرة معينة وأن للجماعة بركة نالت حتى الحيوان الذي رافقهم، ومع وصفهم بالإيمان بما يشعر بالثناء "آمنو بربهم" أي ربانيون، فالفكرة التي جمعتهم وربطتهم هي فكرة ربانية

[٥] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٧١/١٥.

[٦] عدي شعيب، ص ١٥٧ (بتصرف).

وهي معرفة الله عز وجل، والإيمان به، ومن هنا اهتم الإسلام بالفتوة، ونشأ في التاريخ الإسلامي أدب الفتوة. فالشباب دعامة كل أمة وعوامل نهضتها وهم شرط للتغيير المنشود، فالرسول ﷺ يقول:" إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة"[١] والراحلة: هي الناقة القوية السريعة السير ، ونسبتها لا تتعدى الواحدة في القطيع.

- قوله ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ إنهم شباب مؤمنون فروا بدينهم فزادهم الله هدى.. ويستفاد من ذلك أن من آمن بربه وأطاعه زاده الله هدى، وهذا المعنى تؤكده آيات أخرى مثل قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ..﴾ محمد:١٧ وما يتبع ذلك من العلم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ البقرة:٢٨٢، فالتوفيق الإلهي هو رصيد المخلصين في دعواتهم...

- وقد استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري ممن ذهبوا إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص..[٢]

- قوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ.﴾ أي: صبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد، والسعادة والنعمة، حيث ذكر غير واحد من المفسرين أنهم كانوا من أبناء الملوك "[٣]، والربط على القلوب: هو الثبات والرسوخ والاطمئنان للحق الذي عرفته، "والربط على القلب مستعار لتثبيت الإيمان وعدم التردد فيه"[٤].

- وتدل الآية على أن محنتهم كانت شديدة، ومع ذلك ثبتوا على دينهم وواجهوا الباطل فأمدهم الله، فالربط على القلوب التثبيت والتقوية بالصبر حتى لا يجزع، وهو لا يكون إلا عند الأحداث الكبيرة التي تزل لها القلوب وتجزع فيها النفوس...[٥] ، ويؤكد ذلك بقوله تعالى ﴿إِذْ قَامُوا..﴾ والقيام حركة تدل على العزم والثبات وعدم مشاركة

[١] رواه الإمام أحمد في مسنده، ٧/٣، ٤٤، ٨٨، ومواضع أخرى، و١٠٩/٢ وفي سنن ابن ماجة (٣٩٩٠)، وفيه: الناس كإبل .، ومثله في السنن الكبرى للبيهقي ١٣٥/١٠

[٢] العمري أحمد جمال، دراسات في التفسير الموضوعي،ص ٣٦٣.

[٣] مختصر تفسير ابن كثير، ٢/ ٤١٠ .

[٤] ابن عاشور، تفسيره، ٢٧٢/٧

[٥] طهماز عبد الحميد، ص ٥٠ .

قومهم في ضلالهم، وقيل المراد بقيامهم: انتصابهم لإظهار شعار الدين.[1]

- تكرار الدعاء من الفتية بنفي الشرك ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ يدل على أهمية الدعاء إلى الله والإلحاح فيه وشدة التضرع للتثبيت في الفتنة، كما يدل على أن في الكفر تجاوز للحق والصواب،" أي قولاً ذا شطط، أي إفراط في الكفر إن دعونا إلهاً غير الله فرضاً"[2].

- إن من نتائج ربط القلب والتثبيت إنكار ما عليه قومهم من العقيدة الفاسدة، وعبادة غير الله في قولهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ...﴾ الآية :١٥، قوله " لَّوْلَا يَأْتُونَ " تحضيض فيه معنى الإنكار والتعجيز أي هلا يأتون "عليهم" على ألوهيتهم أو على صحة اتخاذهم آلهة "بسلطان بين" بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم، وهو تبكيت لهم وإلقام حجر.[3] ، وهو تبكيت لهم لأن الاتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال.[4]

ويستفاد من ذلك أن العقيدة يجب أن تكون مستندة إلى دليل ظاهر وبرهان واضح وإلا كانت مردودة، والتقليد في هذا الأمر غير جائز، وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ تأكيد لأول السورة ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ كما جاء في موضع آخر من اعتبار الشرك ظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان:١٣ .فالاعتقاد من دون دليل -يستند إليه- كذب.

- في الآيات تأكيد عل محور السورة في تغيير منهج النظر فلا اعتقاد من غير دليل وبرهان، وأن الإسلام ينبغي أن يرافقه كفر بالطاغوت وأهله. ونلمس من ذلك كيف كان هؤلاء الفتية على علم بالواقع وما حولهم من الجاهلية.

- في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ

[1] أبو السعود، تفسيره، ٣٦٧/٣. وللمفسرين أقوال كثيرة في معنى "القيام" جمعها صلاح الخالدي في: مع قصص السابقين في القرآن، ٥٣/٦-٥٤.

[2] - العجيلي سليمان بن عمر ، ١٩٩٦ ،الفتوحات الإلهية ،لبنان، دار الكتب العلمية ٤/ ٣٩٨.

[3] أبو السعود، تفسيره، ٣٦٨/٣.

[4] عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن، ٥٥٩/١

يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ الآية:١٦، أكثر المفسرين على أن "ما" اسم موصول أو حرف مصدري والمعنى: وإذ اعتزلتم قومكم وعبادتهم فإن من الخير والسلامة أن تأووا إلى الكهف لينشر لكم ربكم من رحمته، ورحمته سبحانه وسعت كل شئ، ويهئ لكم من أمركم مرفقا أي ييسر لكم أسباب الخير وكل ما يذهب همكم وغمكم، فنحن نرى أنهم بدأوا بالحديث عن اعتزال قومهم والذي رجوه من الله في هذه الآية من نشر الرحمة وتيسير الأمور هو ما تقدم من قبل في قولهم " رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً" وهذا التصميم على أن يعتزلوا قومهم إنما يدل على الأثر العميق للإيمان في نفوسهم، وهناك رأي ذهب إليه بعض المفسرين هو أن "ما" نافية والجملة من كلام الله جاءت معترضة بين كلام الفتية والمعنى على هذا: إذ اعتزلتم قومكم فأووا إلى الكهف، والله يقول " وما يعبدون إلا الله".[1]

- والآية دليل مشروعية الفرار بالدين عند خوف الفتنة، أي إذا خالفتموهم في الأديان وعبادتهم لغير الله ففارقوهم أيضاً بأبدانكم، وقصة الفرار بالدين قد حصلت لأكثر الأنبياء حين يئسوا من اقوامهم، كما هاجر أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة ثم إلى المدينة.

- ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ أي: يبسط عليكم رحمة ويستركم بها من قومكم ويهيء لكم أمراً ترتفقون به "وقد جعل الله من هذا الكهف الضيق ملاذاً آمناً واسعاً ورحمة"[2].أي: من أمركم الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين ما ترتفقون وتنتفعون به.

- والعبرة من الآية أن الذي يفر بدينه من الكفر لا يخزيه الله أبداً، بل تكون معه رحمة الله تزيل عنه ضيق الرزق وضيق الغربة..، ومن رحمة الله بأهل الكهف أنه لم يتركهم في قلق ورعب وأزال عنهم همّ الحياة والبحث عن الأكل والشرب فألقى الله عليهم النوم في الكهف، وكان توقف الزمن بالنسبة لهم كرامة ومعجزة كي لا يحسوا بضيق الزمان والمكان.

- في الآية دليل في الحث على الهجرة لسلامة الدين وعدم الإقامة في

[1] انظر: تفسر أبي السعود ، ٣٦٨/٣، وفضل حسن عباس، ص ٧٤٣-٧٤٤.

[2] - الشعراوي متولي ، ص ١٠.

بلد لا يستطيع أن يعبد فيه الله ... ووطن المسلم حيث يستطيع أن يعبد الله، قال ابن كثير: "هذا أمر الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة لقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ العنكبوت: ٥٦، وهذا ما فعله النبي ﷺ وصحابته، فقد هاجر بعض الصحابة إلى الحبشة، ثم إلى المدينة فرارا بدينهم، وهاجر رسول الله مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد جسد القرآن الكريم هذا الحدث ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة: ٤٠

– وتدل القصة مرة أخرى على ثقة المؤمنين برحمة الله وفضله فتوكلوا عليه وسلموا أمرهم إليه حين قال بعضهم لبعض : فأووا إلى الكهف...

– القصة بشكل أو بآخر تتكرر في كل الأزمان... الاضطهاد للمؤمنين والدعاة، والمقاومة المؤمنة تتكرر على اختلاف الليل والنهار وقد يلجئون للفرار بدينهم، ولكن الرحمة تشمل الصادقين والنهاية هي نصر الله لأوليائه وخذلانه للكافرين.

ومن خلال المشهد الأول نخلص إلى أن الفتية والقوم على طريقين ومنهجين مختلفين: الحق والباطل لا سبيل للالتقاء والمشاركة في الحياة ولا بد من الفرار بالعقيدة، فهم ليسوا رسلاً إلى قومهم فيوجهونهم بالعقيدة الصحيحة ويدعونهم إليها، ويتلقون ما يتلقاه الرسل ... ولما كشف أمرهم اختاروا الكهف على زينة الحياة الدنيا[1] .

المشهد الثاني: (حالهم في الكهف)

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً {١٧} وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ الكهف: ١٧-

[1]- سيد قطب ، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٢٦٢

١٨، ويدل المشهد على أمور نستنبطها من تحليل المشهد:

– يصور المشهد حال الفتية في الكهف بعد أن أنامهم الله نوما عميقا وضرب على آذانهم بأن حفظهم الله برحمة منه من أمرين، أولهما من حرارة الشمس بأن لا تصيبهم عند طلوعها وغروبها، أما لطبيعة الكهف وموضعه، أو أنه آية من آيات الله لقوله تعالى" ذلك من آيات الله" والآخر: حفظهم من أن تؤثر الأرض في أجسامهم بتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال

– ميلان الشمس عن كهفهم حتى لا توقظهم أشعتها ، تميل عن كهفهم إذا أشرقت ، وإذا غربت لا يدخل أشعتها إلا القليل بعيداً عن أجسادهم.[1] وفي الآية تصوير فني بليغ، لهيئة الفتية "والشمس تطلع على الكهف فتميل عنه كأنها متعمدة ..ولفظ " تَّزَاوَرُ" لها مدلول الإرادة في عملها"[2]. ويوحي تعبير "وهم رقود" على الدوام والثبوت.

– ذكرت الآية صفة الكهف دون أن يعلمنا الله بمكانه إذ لا فائدة فيه ولا قصد شرعي لأن فيه دلالات أخرى على الرحمة، وهذا لا يمنع البحث من قبل المختصين بتتبع الأدلة، وبسبب استمرار الجدل حوله وادعاء كثير من البلدان وجود الكهف عندهم بأدلة وهمية.

– قوله ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: متسع منه داخلاً، بحيث إذا دخلت الشمس لا تصيبهم فلو أصابتهم لنالهم أذاها، فتبارك الذي أرشدهم إلى كهف هكذا صفته تدخله الشمس والريح.

- صفة الكهف تدل على أن بابه من الشمال – كما يرى ابن كثير – عندما تأمل المكان، فلو كان الباب من ناحية الشرق لما دخل إليه شيء عند الغروب، ولو كان من الجنوب لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولو كان من الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ...والله أعلم.

– التعقيب بقوله ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾ الذي أرشدهم لكهف بهذه الصفة، فوضعهم في الكهف آية من آيات الله، من يهتدي بها فقد هداه الله وهو المهتدي حقاً ومن لم يأخذ بأسباب الهدى ضل وجاء ضلاله وفق الناموس الإلهي ولن يجد من بعده هادياً.

[1]- الشعراوي ، ص ١٨

[2]- سيد قطب ، الظلال ، ٤ / ٢٢٦٧

والعبرة والفائدة من ذلك هو دلالتها على قدرة الله، وعلى التوافق مع سنن الله في الكون، فإن للهدى والضلال سنناً ونواميس ربانية في الكون ... وتتجلى قدرة الله في هذه الآيات بأمور:

– توقف الزمن بالنسبة لأهل الكهف، حيث ألقى الله عليهم النوم فترة غير عادية لأن عادة الإنسان أن ينام يوماً أو بعض يوم.

– قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾ يدل على أنهم لم يتغيروا فالله تعالى أوقف تأثير الزمن عليهم فكانوا غير خاضعين لتأثيره، ولما نظر بعضهم إلى بعض وجدوا أن هيئتهم لم تتغير عن الصورة التي ناموا عليها، ويدل على ذلك ما بعده في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾[1].

وقيل أنها تدل على أن عيونهم كانت مفتوحة حتى لا يسرع إليها البلى وأن الله ألقى عليهم المهابة.

– تتجلى قدرة الله في نومهم (٣٠٩) ثلاثمائة عام وتسعة، هذه المدة تحتاج إلى تقليب أجسادهم ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ...﴾ يقول الشعراوي: "وأعلمنا القرآن بهذا الإعجاز العلمي ... فالأطباء حديثاً يطلبون من أهل المريض غير القادر على الحركة أن يقلبوه يميناً ويساراً حتى لا يصاب جسده بقرحة الفراش"[2] وعلى أي حال فالأمر يدل على قدرة الله على حفظ أجسادهم طوال هذه المدة، إنها المعجزة التي لا يمكن أن تكون إلا من قادر... حتى إن الناظر إليهم يظنهم مستيقظين فكأنهم أحياء يتقلبون، وهو عناية من الله ليحفظهم ممن يريد المساس بهم بالرعب ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ وهذا لإلقاء الهيبة والجلال عليهم فلا يتجرأ أحد على الدنو من الكهف، يقول ابن كثير: " لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء الله تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة"[3]

– وقد يعد الأمر كرامة للفتية، يقول ابن عاشور: "وهذا يدل على أن تقليبهم لليمين والشمال كرامة لهم

[1] – المرجع نفسه، ص ١٢-١٣

[2] – الشعراوي، ص ١٣.

[3] – ابن كثير، تفسيره، ٣/٧٦

بمنحهم حالة الأحياء، وعناية بهم. ولذلك لم يذكر التقليب لكلبهم بل استمر في مكانه باسطاً ذراعيه شأن جلسة الكلب"[1].

– شملت رعاية الله كلبهم في مدخل الكهف وكأنه يحرسهم، كما شملته بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وذكر أكثر المفسرين أن بقاء الكلب في الباب لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب كما جاء في الصحيح.

وإلى هنا ينتهي المشهد... منظر الفتية في الكهف والشمس تطلع عليهم وهم في هيئتهم يثيرون الرعب في قلب من يطلع عليهم إذ يراهم نياماً كالإيقاظ يتقلبون ولا يستيقظون وذلك من تدبير الله حتى يحين الوقت المعلوم. وقد اعتبر العلماء هذه التفصيلات القرآنية لحال الكهف دليلاً على مصدر القرآن وحجة على أنه من عند الله، وليس من عند محمد، لأن هذه التفصيلات لم تذكر في التوراة ولا في الأنجيل.[2]

[1] – ابن عاشور، تفسيره، ٧/٢٨١

[2] انظر قول السهيلي في الروض الأنف ٣/١٦٥-١٦٦، والخالدي صلاح ٦/٧٠-٧١.

المشهد الثالث: (بعثهم من النوم)

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ الكهف: ١٨-١٩. وفجأة وبقدر الله تدب الحياة في أصحاب الكهف..يستيقظون ولا يعرفون كم لبثوا

– بعد ان تساءلوا عن مدة لبثهم تركوا أمر هذه المسألة ..إلى الله، شأن المؤمن في كل ما يجهله ولا يعرفه، وأخذوا في شأن آخر ..فهم جائعون ولديهم نقود فضية خرجوا بها من المدينة ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾.

– في قوله ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ يدل على عدم حدوث التغيير في

أجسادهم لأن معناها: كما أنمناهم وحفظنا أجسامهم من البلى على طوال الزمان بعثناهم[1] ولذلك فالآلوسي لا يعتبر اللام للتعليل فيقول: اللام في قوله "ليتساءلوا" لام العاقبة، فبعد أن بعثهم الله من نومهم تساءلوا بينهم، وليست لام التعليل .. [2]، والحوار يدل على أن حفظ الله أجسادهم من التغير ولم تطل شعورهم وأظفارهم كما زعم بعض المفسرين، وإلا لاستنكروا حالهم ولم يقولوا ﴿لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

– أن في حمل الورق (الفضة) عند فرارهم دليل على أن حمل النفقة وما يصلح للمسافر هو رأي المتوكلين على الله دون المتكلين على الإنفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات[3]، وقد استدل البعض بذلك على أنهم كانوا أهل ثراء ...إضافة إلى وجود الكلب لأنه إما للصيد أو للحراسة، وهما من شأن أصحاب الجاه والثراء، وهو خاص بهم كما نسبته الآية لهم "كَلْبُهُمْ"[4].

وذكر الشنقيطي استدلال بعض العلماء ومنهم المالكية ب "فابعثوا أحدكم بورقكم" على جواز الوكالة في الإسلام، وعلى صحة وجواز الشركة.[5]

– إن طلب الفتية اختيار أطيب الطعام من المدينة هو دليل على فقه هؤلاء بحل الطيبات وذلك في قوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾ وتحديد الأولويات ، فتركوا قضية الخلاف على مدة اللبث إلى ما هو أهم وهو البحث عن الطعام.

– قوله ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ وكان الفتية حذرين من الاطلاع عليهم وكشف أمرهم... والوصية بالتلطف وهو التخفي حتى لا يعرفوا، أي: لا يفعلون ما يؤدي إلى الاثارة من غير قصد وذلك في قوله: "وَلْيَتَلَطَّفْ"، وفيه درس بليغ بألا يعرض المسلم نفسه بتهوره للأذى والخطر

[1] – الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي،(١٩٩٥)، تفسير الخازن المسمى : لباب التأويل في معاني التنويل ، بيروت– دار الكتب العلمية، ٣/ ١٦٠.

[2] – الآلوسي البغدادي، أبي الفضل شهاب الدين محمود (١٩٨٥)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت– دار إحياء التراث العربي، ١٥/ ٢٢٩.

[3] – سعيد حوى، الأساس في التفسير ٦/ ٣١٧٠.

[4] – راجع طهماز، عبد الحميد، ص ٤٩.

[5] – انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، ٤/٤٥-٧٥.

والفتنة، فلا يثير الشكوك لأن لعاقبة كشفه احتمالين : القتل أو الفتنة، وفيها الحكمة في التعامل وعدم التزمت والتحذير من أسلوب العنف.

– عللوا أخذهم بالحيطة والحذر بما يدل على فقه الواقع ولما هو متعارف بينهم ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ الكهف: ٢٠، أي إذا علموا بمكانكم يقتلوكم شر أنواع القتل وهو الرجم بالحجارة أو يجبروكم على العودة إلى ملة الشرك بتسليط أنواع العذاب .

– التعقيب دليل على تصميم هؤلاء الفتية ومعرفتهم لعاقبة الكفر" ولن تفلحوا إذن أبدا" ، لا في الدنيا ولا في الآخرة " وهذه هي التي كانوا يخافونها أن يفتنهم قومهم عن عقيدتهم بالتعذيب وما يفلح من يرتد عن الإيمان إلى الشرك، وأنها الخسارة الكبرى"[1]. وهذا هو شأن الظالمين كما جاء في سورة إبراهيم " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ" آية ١٣،

[1] – سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٢٦٤

ويقول شعيب عليه السلام " قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم" الأعراف:٨٩.

ويستفاد منه: أن منهج الكفار متشابه في كل العصور تجاه أهل الإيمان، والدعاة خصوصاً، وهو التعذيب حتى الموت، أو الإكراه على الكفر وما أكثر الأحداث التاريخية التي تبرهن على ذلك، وهذا ما عليه حال المسلمين اليوم وما يواجهونه من سوء المعاملة، وقد حذرنا الله ونبهنا على ذلك فقال: ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ البقرة: ١٢٠ وقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ البقرة: ١٠٩.

المشهد الرابع: (العثور على الفتية ثم وفاتهم)

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ

– أراد أولي الأمر بناء مسجد عند الكهف، فالآية جاءت على سبيل سرد الخبر وليس فيها دليل على جواز بناء المساجد على القبور، لأن النهي واضح في أحاديث الرسول ﷺ منها قوله: "عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرًا لرسول الله ﷺ كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فقال: "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجد وصوروا فيه تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة"[1] وكذلك عن عائشة قالت: "قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قالت فلولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً"[2] وليس في الآية مدح لهم أو حث على الاقتداء بهم.

– الحكمة من موقهم كذلك أن هؤلاء لو بقوا أحياء بين الناس لعبدوهم وصاروا فتنة ولاتخذوهم آلهة ولذلك أراد الله أن يثبت بشريتهم بالموت منعاً من الفتة التي تترتب على بقائهم.

– وفي القصة كذلك إشارة وهي العبرة لأهل قريش كذلك وهم منكرون للبعث حيث ذكر القرآن عنهم قولهم: ﴿ وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ الأنعام ٢٩.

المشهد الخامس: (الجدال حول أصحاب الكهف)

قال تعالى ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ الكهف: ٢٢. وهذا الجدال على عادة الناس حين يتناقلون الروايات والأخبار في الزيادة والنقص، وإضافات خيالية بمرور الزمن وتعاقب الأجيال، وهذا الجدل حول عدد أصحاب الكهف ومدة لبثهم.

– ذكرت الآية الاختلاف حول عددهم فجماعة تقول ثلاثة رابعهم كلبهم، وأخرى تقول خمسة سادسهم كلبهم، والأخيرة سبعة وثامنهم كلبهم، وقد حسم القرآن الاختلاف الواقع وأمر برد علم ذلك إلى الله، مع أن في الآيات

[1] – البخاري، صحيحه، كتاب الصلاة باب: هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد ٥٥/١ ، وباب الصلاة في البيعة ١٥٧/١

[2] – البخاري، صحيحه، كتاب الصلاة، ١ /١٥٥ ، ح(٤٣٥، ٤٣٦)، و١٥٨/١.

ما يشير إلى الرأي الراجح حيث عقب على القولين الأوليين ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾، وعندما ذكر القول الثالث لم يعقب عليه بما يشير — على رأي أكثر أهل العلم والمفسرين — إلى رجحانه.

– ويستفاد من قوله ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أن العبرة ليست بالعدد بل بمعنى القصة ومدلولها على التوحيد والبعث وقدرة الله، وفيه عبرة للمسلمين بعدم الاهتمام بالشكليات والظواهر بل بالمعاني والمقاصد والعبر، فلم تختلف العبرة على كونهم ثلاثة أو أكثر فهي حاصلة بالقليل والكثير، ولذلك يوجه القرآن إلى ترك الجدل في هذه القصة وعدم استفتاء أحد من المتجادلين في شأنهم" تمشياً مع منهج الإسلام في صيانة الطاقة العقلية أن تبدد في غير ما يفيد وفي أن لا يقفو المسلم ما ليس له به علم وثيق"[1].

– والآية كذلك فيها تنبيه على أن جميع الأقوال لا حجة لهم فيها.

– يلاحظ في جميع الأقوال أن عددهم فرداً مما يشير إلى أن أحدهم هو كبيرهم أو أميرهم... والله أعلم.

– وهناك لفتة لغوية وهي حرف السين في (سَيَقُولُونَ) أي يقول الناس أو المسلمون إذ ليس في هذا القول حرج ولكن نبهوا إلى أن جميعه لا حجة لهم فيها.

في قوله رجمًا بالغيب فيه استعارة بلاغية لأن الرجم حقيقة الرمي بحجر ونحوه واستعير هنا لرمي الكلام من غير روية ولا تثبت، ولما تكلموا بأمر غائب قال: (بِالْغَيْبِ) كانوا يرجمون به[2].

ولوحظ في الرأي الأخير (وثامنهم كلبهم) واو الحال ولا توجد الواو في الرأيين الأولين، فوقوع الحال مقترن بالواو قد عد من مسوغات مجيء الحال نكرة. وقال ابن عاشور أن لهذه أمثلة أخرى في القرآن وليس من غرائب فن الإبتكار (واو الثمانية) كقوله تعالى: (والناهون عن المنكر) (وفتحت أبوابها).

وفيه دليل على أن الخوض فيه لا احتياج له، وهو توجيه وارشاد إلى الأحسن في مثل هذا المقام برد العلم إلى الله.

في قوله ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وفي مقدمتهم محمد ﷺ، وروي عن ابن عباس أنه قال: "أنا من القليل".

[1] – سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٢٦٤

[2] – ابن عاشور ، تفسيره ،٢٩١/٧.

- وفي قوله: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً﴾ فيه تقريع على الإختلاف في عددهم وإذا أراد أحد المماراة في عدتهم في أخبار تلقاها من أهل الكتاب فلا تمارهم لأنه اشتغال بما ليس فيه جدوى، وهو توجيه جاء مع ما عطف عليه معترض في أثناء القصة وفيه معنى المجادلة المفضية إلى الشك والمراء الظاهر مما لا يطول الخوض فيه.

وكذلك التوجيه في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً﴾ هو كناية رمزية عن حصول علم النبي ﷺ بحقيقة أمرهم بحيث هو غني عن استفتاء أحد، وأنه لا يعلم المشركين بما علمه الله من شأن أهل الكهف[1].

وفيه أدب المسلم للمسلم أن لا يستفتي في أمر دينه أحدًا من غير أهل العلم من المسلمين.

تعقيب وتوجيه بين المشاهد

جاء العطف على التوجيه الأول ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً {٢٣} إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾ ٢٣-٢٤ هذه الآية مرتبطة بقصة سبب نزولها والتي ذكرناها في أول السورة وتكملتها: أن المشركين لما سألوا النبي ﷺ عن أهل الكهف، وعدهم بالجواب عن سؤالهم في الغد ولم يقل إن شاء الله فلم يأت جبريل عليه السلام بالجواب إلا بعد خمسة عشر يوماً وقيل بعد ثلاثة أيام، فكان تأخير الوحي عليه عتاباً رمزياً من الله لرسوله.

وفيه أنه كما سبق النهي عن الجدال في الماضي يرد النهي عن الحكم على غيب المستقبل وما يقع فيه فالإنسان لا يدري ما يكون في المستقبل فقال ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ﴾، أي: لأجل شيء تعزم عليه إني فاعل ذلك الشيء غدا، أي فيما يستقبل من الزمان مطلقا فيدخل فيه الغد دخولا أوليا.[2]، وفيها الأمر بتعليق المستقبل على مشيئة الله وهو من تمام الإيمان بالغيب، ويعلق المرحوم سيد قطب بإشارة على هذه الآية فيقول: "وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان لا يفكر في أمر المستقبل ولا يدبر له وأن يعيش يوماً بيوم ولحظة وأن يصل ماضي حياته بحاضره... ولكن

[1] - المصدر السابق، ص ٢٩٤.

[2] أبو السعود، تفسيره، ٣/ ٣٧٥.

معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التي دبرها، وأن يعزم ما يعزم ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم ويستشعر أن يد الله فوق يده..."[1].

وفيه توجيه خفي وعميق على ضرورة الصلة بالله حين يدبر الإنسان ولا يبطر حين ينجح ولا ييأس حين يفشل. ويستفاد منه أن لا يقطع الإنسان بأمر سيفعله في المستقبل إلا أن يعلق ذلك على مشيئة الله، والمراد بالغد ما يستقبل من الزمان لا خصوص الغد وهذا من الأساليب العربية.

وفيه إرشاد من الله تعالى لنبيه ﷺ من أدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يردّ ذلك إلى مشيئة الله عز وجل فالخطاب خاص والحكم عام للمسلمين جميعاً وفيه وعظ للجاهل عن التساهل في الأدب وفي الآية كذلك تنبيه إلى أن مقام محمد ﷺ مقام العبودية لله فكيف بغيره.

وبما أن الرسول ﷺ بشر قال له ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ إي إذا نسيت هذا التوجيه وهو الإستثناء، فاذكر ربك وارجع إليه. وهذا لا يطعن في نبوته ولا في عصمته، صحيح أن الله تكفل له بأن لا ينسى كما قال تعالى " سنقرئك فلا تنسى" الأعلى:٦، ولكن هذا النسيان المنفي إنما هو ما كان باختياره، ولكن الله إذا شاء أن ينسى فسوف ينسى..ثم إن النسيان المنفي هو النسيان في حفظ القرآن، فإن الله تكفل بحفظ القرآن، وتكفل لرسوله بحفظ القرآن فلا ينسى منه حرفاً، أما في غير القرآن فهذا ممكن، بل وقع من رسول الله ﷺ حيث نسي وهو في الصلاة ، ثم سجد للسهو قبل أن يسلم.[2]

وفي قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾ أي يوفقني لشئ أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي، إرشادا للناس ودلالة على ذلك، وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ما هو أعظم من ذلك وأبين كقصص الأنبياء المتباعدة أيامهم والحوادث النازلة في الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة، أو لأقرب رشدا وأدنى خيرا من المنسي.[3] - وهو

[1] - سيد قطب ٤، /٢٢٦٥.

[2] الخالدي، صلاح، مع قصص السابقين في القرآن، ٦/ ٩٤.

[3] أبو السعود، تفسيره، ٣، ٣٧٦.

دعاء يصل القلب دائماً بالله، وهذا يوضح العلاقة بين الآية ومقدمة القصة إي في خاتمتها ومقدمتها، وهي قوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ﴾ آية ٩. ففي الآية تهوين من الله لقصة أصحاب الكهف لأن هناك أمور كثيرة تدل على البعث هي أكبر من قصة الكهف، ولهذا وجهه في آخرها لهذا الدعاء "وَقُلْ عَسَى" أي يوفقني لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف يدل على صحة نبوتي ويرشد إلى صدق رسالتي، وقد فعل الله عز وجل ذلك فأعطى النبي كثيراً من الآيات البينات. وقيل أن معنى ذلك إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسئل الله تعالى فيه وتوجه إليه في أن يوفقك إلى الصواب والرشد في ذلك[1].

ويستفاد مما سبق أن ترك الإستثناء يستدعي الإستغفار وذكر الله.

المشهد الأخير : (تقرير العقيدة والخاتمة)

وهو تقرير حقيقة مدة لبثهم ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً {٢٥} قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ

[1] – راجع مختصر ابن كثير، ٤١٥/٢.

به وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً {٢٦} وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ الكهف ٢٥-٢٧.

– أن القرآن حسم قضية مدة لبثهم وهو العالم وحده بذلك، ولذلك جاء التعقيب ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾.

وفي قوله ﴿وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ اي ثلاث مائة وتسع سنين للتوقيت القمري، وثلاث مائة فقط بالتوقيت الشمسي، وفي هذه الزيادة دليل على اعجاز القرآن العلمي وصدق الرسول ﷺ حيث لم يكن هذا العلم — وهو التفاوت بين السنين الشمسية والقمرية — لعموم العرب علماً به.

وفيها معرفة لبثهم على وجه اليقين فجاء التعقيب ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ اي هذا فصل الخطاب يقرره عالم الغيب ما أبصره وما أسمعه فلا جدال ولا مراء...

– وهناك من المهتمين في الإعجاز الرقمي يرى أن في آيات القصة نوعا من الإعجاز وهو الإعجاز الرقمي، ويرون أن الأرقام القرآنية ذات دلالة عظيمة، وأن لكل رقم دلالة واضحة، فقد جاء

في هذه الآيات أن مدة لبث أصحاب الكهف (٣٠٩) سنة، فبحساب عدد الكلمات من "لبثوا" الأولى إلى لبثوا الأخيرة والتي هي حدود بداية القصة ونهايتها يكون المجموع (٣٠٩) كلمة أي بنفس عدد السنين، والعجيب كما يقول الكاتب أن الرقم (٣٠٠) هي نهاية العبارة " ثلاث مائة".[1]

ثم جاء التعقيب والخاتمة بإعلان الوحدانية لله وهي ظاهرة في سياق القصة ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾.

ثم بتوجيه الرسول ﷺ إلى تلاوة ما أوحاه ربه إليه وهو الحق، واللجوء إلى الله وحده كما لجأ أصحاب الكهف إليه فشملهم برحمته.

– والحكمة في ذلك أن القرآن والعمل به حماية لمن أراد الحماية... وأكد ذلك بقوله: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ قال الآلوسي: "وهو أمر من التلاوة بمعنى القراءة، أي لازم تلاوة ذلك على

[1] انظر: عبد الدايم الكحيل، إشراقات الرقم سبعة في القرآن الكريم، دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ص ٥٦-٦١، والملاحظ أنه يعد الواو كلمة.

أصحابك ... وجوز أن يكون (أتل) أمراً من التلو بمعنى الاتباع أي واتبع ما أوحي إليك وألزم العمل به[2]. ولا مانع من إرادة الإثنين: التلاوة والاتباع، والخطاب موجه للنبي ولكنه عام لجميع المكلفين.

– وقوله ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ أي لن تجد غير الله من ملتجأ إليه عند أي نازلة...، ويتصل هذا المعنى بالقصة حيث إن أصحاب الكهف في فتنتهم لم يلجؤا إلى غير الله ولم يسألوا سواه.

ففي التعقيب على الآيات دلالات: فهي تعلمنا الأدب مع الله بأن نكل الأمور إلى علمه، ومدحه والثناء عليه، ولا يصلح غيره وليا، ودعوة للتلاوة، ولا تبديل لسنته.

فكهف السلامة في كتاب الله تلاوة واتباعاً وفي سنة النبي ﷺ ففيهما الأمان من فتن الدنيا ومحنها.

وهكذا تنتهي القصة مخلفة في الذهن دروساً وعبراً لمن يريد الاعتبار... قصة فتية فروا إلى كهف يؤيهم من الظلم،

[2] – الآلوسي، شهاب الدين محمود ، روح المعاني، ١٥٧/١٥

فشاء الله أن يجعل من سيرتهم وحياً يتلى إلى آخر الدهر...

أهمية القصة وحكمة ورودها في القرآن

مع أن القصة مرتبطة بسبب نزول، ولكن لنزولها هدف هو أعم من إجابة السؤال، علماً أن الأسباب من الله كذلك، فكانت من مقاصد الإصلاح والتعليم التي جاء القرآن لتحقيقها، وفي تلك البيئة الفاسدة التي بعث فيها محمد ﷺ، فطبيعة البشر لا تختلف كثيراً، وطالما ذكرنا القرآن بان سنة الأمم هي تكذيب الرسل، وفي الأزمان والبيئات التي تتوالى وتتجدد، والحوادث تتكرر، وفي الأجيال التي سيخاطبها القرآن وتقودها النبوة المحمدية على اختلاف الأعصار، كل ذلك أهم من سؤال طائفة أو جماعة.

فالغاية تهذيب النفوس البشرية، والقضاء على العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة، وقد نقل ابو الحسن الندوي عن ولي الله الدهلوي قوله:" فوجود الباطل سبب مستقل لنزول آيات المخاصمة، وانتشار المظالم كاف لنزول آيات الأحكام، وعدم انتباههم وازدجارهم بما جاء في القرآن من ذكر آلاء الله وأيام الله، وما يقع عند الموت وبعده، علة حقيقية لنزول آيات التذكير..."[1].

وقد جاءت هذه القصة في أوانها ومكانها، فقد كان المسلمون في مكة يواجهون ظروفاً مشابهة وفتناً كالتي واجهها الفتية وفي أوج الاضطهاد والاستبداد، ويعيشون في فترة تشبه الفترة التي عاشها الفتية قبل أن يغادروا ويلجأوا إلى الكهف، كما صورهم القرآن، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الأنفال: ٢٦ وقد شهدت كتب السيرة بالظلم والقسوة التي عانى منها الرسول ﷺ وأصحابه ، في مثل هذا الضيق والعنت يترل الوحي بهذه القصص يبشر المؤمنين بالفرج بعد الشدة، وبالنصر واليسر بعد العسر ،وبالعز بعد الذل... فكان لمثل هذه القصص الأثر الكبير على نفسية النخبة المؤمنة وإمدادها بشحنة معنوية دافعة لمواصلة المسيرة الدعوية بقلب مطمئن بنصر الله.

[1]- الندوي أبو الحسن، الصراع بين المادية والإيمان ، ص٤٤ .

ومن هنا نستنبط حكمة نزول هذه القصة وورودها في القرآن الكريم في وقت كان يمر فيه المسلمون بأصعب وأحلك فترة حيث يخيم اليأس والتشاؤم وتبلغ القلوب الحناجر وتتشابه إلى حد ما مع قصة أصحاب الكهف في مضمونها من حيث الصراع بين الحق والباطل واضطهاد المؤمنين الثابتين على مبادئهم والتاركين لزينة الحياة الدنيا، تختلف الأزمان وتتشابه القصص في مضمونها ونهايتها بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يوسف:١١١. فكما لجأ الفتية إلى الكهف لجأ المسلمون سنوات إلى شعب أبي طالب ونالوا أنواع العذاب من الجوع والهجر وهاجر بعضهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة ثم نصر الله دينه ونبيه كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة:٣٣. وجعلها الله الرسالة الخاتمة وحامليها خير الأمم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ آل عمران:١١٠.

وتتكرر القصة على مر الزمان وفي بقاع شتى من الأرض نجد صورة لأصحاب، الكهف، وجماعة المسلمين في مكة... ويشتد الحال ويضيق الخناق ويستحيل الجمع بين الحياة الحرة وبين الإيمان والعقيدة فلا يبقى أمام المسلم إلا الهجرة بدينه واعتزال الكفر والظلم...وتشبه قيم الحضارة الحالية القيم الدجالية لما فيها من الدجل والتلبيس وتمويه الحقائق، وتسمية الأشياء بغير اسمها حتى التبس الأمر على بعض الأذكياء والعلماء، وغاب عنهم مخالفتها للهدي النبوي، وأقبلوا على لذة الدنيا وزينتها ، وعاجل منفعتها ، وهو ما تدور حوله هذه السورة بقصصها المتنوعة.

وهكذا تنتهي قصة الإيمان والفتوة والتضحية، ونظراً لأهمية القصة سميت السورة باسمهم تكريماً وتخليداً.

الخاتمة والنتائج البارزة

– تعاون الكفار فيما بينهم وتنسيقهم موقفهم لمحاربة دعوة الحق، كما حصل من قريش واليهود في توجيه الأسئلة لرسول الله ﷺ.

الاكتفاء بالعرض القرآني لأحداث وتفصيلات القصص وعدم اللجوء للإسرائيليات، وعدم تحديد مبهمات القرآن من أشخاص وأزمان وأمكنة..

– أهمية العقيدة الصحيحة التي ينبغي أن تملأ النفوس والقلوب، لتثبيت العزم والحزم، لأنها اللبنة الأولى في المنهج الرباني.

– نلاحظ أن قصة أهل الكهف تحدد لنا نوعاً من مواقف الكافرين من المؤمنين ، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ البقرة:٢١٢، وفي قصة أهل الكهف نوع من فوقية لأهل الإيمان على أهل الكفر" والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة "، وفي قصة أهل الكهف ذكر نوع من رزق الله عباده وهو الهداية والرحمة – إن قصة أهل الكهف نموذج لطلاب الآخرة العازفين عن زينة الحياة الدنيا، ونموذج للدخول في الإسلام كله في كل قصة، ولقد رأينا كيف أن أهل الكهف اعتزلوا، وأووا إلى الكهف داعين الله عز وجل هذا الدعاء الذي قصه علينا وهو دعاء الفارين بدينهم من الفتن[1].

– أخفى الله عنا تفاصيل في القصة كأسماء الفتية وغيرها لحكمة إلهية، وهي إشاعة عمومية الحدث في كل الأزمان والأمكنة حتى لا يظن أحد أنها خصوصية زمان ومكان...كما لم يفصل القرآن الأمور التي تتصل بالزمان والمكان لأن القرآن يطوي كثيرا مما لا تدعو إليه الحاجة وما لا تكون به العبرة.

– تركيز القصة على ذكر "الفتية" حثا للشباب للاقتداء بهم وأنهم عماد الأمة ومستقبلها، كما تفيد الصحبة الصالحة. وفيها أن الشباب أسرع من غيرهم في الاستجابة للدعوة، فعلى الدعاة بذل الجهد المستمر مع الشباب لأن عندهم من القوة والحماس وصفاء النفس ما تحتاجه الدعوة، في بناء مستقبل الأمة.[2]

---

[1] – راجع سعيد حوى، الأساس في التفسير ٦ /٣١٦٦

[2] انظر: عبد الكريم زيدان، ٥٦٥/٢، ومحمد أديب الصالح، معالم قرآنية في السيرة، ص ٢٢٣-٢٢٤

– أن قصتهم على غرابتها ليست بأعجب آيات الله ، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف.

– ابتلاء البشر، ولا سيما الكفار وأهل الكتاب بزينة الحياة الدنيا، وانذارهم بسوء العاقبة وبشارة المؤمنين بالأجر والثواب . والصراع الدائم بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، والإيمان والكفر.

– أن الإيمان يزيد وينقص، فقد استدل بقوله تعالى "..وزدناهم هدى" غير واحد من الأئمة على زيادة الإيمان وتفاضله، وإنه يزيد وينقص، وزيادة الإيمان تكون بطاعة الله، والإكثار من الأعمال الصالحة.

– إشارة إلى أثر الإيمان في النفوس التي تختار الهجرة من بطش الظالمين وعدم الاستكانة لهم.

– في القصة مشروعية الهجرة والعزلة للحفاظ على الدين، وتجنب الوقوع في الفتن، وترك العزلة والهجرة لمصلحة راجحة، إذا وجد المرء نفسه قادرا على البقاء وتحمل الأذى، لأن في بقائه تثبيتا لغيره من المؤمنين وتقوية لهم.[1]

– تقرير وإثبات أمر البعث، وأنه بالأرواح والأجساد، واليوم الآخر، وما فيه من أجر وثواب وعقاب.

– قدرة الله على مخالفة سنن الكون ونواميس الحياة التي يألفها الناس، وصنع الخوارق والمعجزات التي لا يدركون حكمها وأسرارها.

– تظهر القصة كرامة المؤمن على الله تعالى برحمته ورعايته لهم واستجابته لدعائهم بأن هيأ لهم أسباب النجاة، وأنه خلد ذكرهم بقرآن يتلى إلى أبد الدهر.

– في القصة تسلية للرسول ﷺ وتثبيت له، ووعده بالفرج بعد الشدة، وفيها الصدع بالحق أمام الطغاة.

– تقرير الإلوهية للواحد الأحد، وتعميق قضايا العقيدة كالوحي والرسالة واليوم الآخر وبيان فساد عقيدة الشرك، والإشارة إلى أن كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر فهو بمشيئة الله وتدبيره.

– النهي عن الخوض في الأمور الغيبية التي هي من خصائص الله، وعدم الجدال والمراء فيما لا يعلم.

– في القصة درس في تعليق العزم في الأمور على مشيئة الله وذكره حال النسيان.

---

[1] المرجع السابق لعبد الكريم زيدان ١/ ٥٧١.

- أن التغيير والتحول الحضاري سنة كونية حسب سنة المداولة ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ ﴾ آل عمران ١٤٠: وهي تكون بقدر الله أولاً متوافق مع دور البشر فيه.

- أن الفكرة تبقى والأشخاص يذهبون، فقد انتهى دور هؤلاء الفتية بموتهم بعدما أدوا الذي عليهم وبقيت العبر المستفادة، ويرى البعض في هذا درسًا للدعاة هو"عدم الارتباط بالأشخاص والاعتصام بحبل الله... والرجال يعرفون بالحق، لا العكس"[1]

- أهمية الرسل ووجود الرسول القائد الذي يتلقى الوحي مباشرة من أجل الفصل في بعض القضايا التي لا يمكن أن تصل إلى الناس لولا الرسول ﷺ.

- الاعتصام بالقرآن وتعهده تلاوة وعملاً، والتمسك بسنة النبي ﷺ وأن فيهما العصمة من الزلل والوقوع في حبائل زينة الحياة الدنيا والحفاظ على الدين، كما حفظ الله أهل الكهف بإيمانهم وإنكارهم للشرك.

- فيها دليل على أمكانية وقوع الكرامات للصالحين. وحفظ الله لأوليائه ونصره لهم.

- ضرورة الأخذ بالأسباب المشروعة، بدليل اللجوء للغار، واستصحاب الدراهم، وهذا لا ينافي مقتضيات الإيمان. وفي القصة الانشغال بالمهم دون غيره

- تصحيح النظر إلى الأمور بميزان الشرع مثل تقييم الناس بميزان التقوى ولا مجاملة على حساب العقيدة وذلك من خلال التوجيه الذي ختمت به القصة ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾.

- في قصة أصحاب الكهف خاصة، وقصص سورة الكهف عامة بشارة للمؤمنين بنصر الله، وجزائه في الدنيا والآخرة، وفيها الإنذار للكافرين بالخزي والخسارة في الدارين كذلك.

[1] - راجع : حمدي شعيب، حول القصص القرآني، ص ١٩٧ .

المصادر والمراجع

- ابن عاشور. محمد الطاهر، (د.ت)، التحرير والتنوير ، تونس ، دار سحنون للنشر والتوزيع.

ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن كثير، (١٩٨٥)، تفسير القرآن العظيم، (المختصر للصابوني)، ط٥، دمشق ، دار القلم.

- أبو السعود، تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، بيروت: دار الفكر د.ت.

- أحمد سيد محمد عمار.(١٩٩٨)، نظرية الإعجازالقرآني وأثرها في النقد العربي القديم، دمشق، دار الفكر.

- الآلوسي أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني بيروت:، دار الفكر ١٩٩٧م.

- حمدي شعيب، (١٩٩٩)، لمحات تربوية حول القصص القرآني، طرابلس/ لبنان، دار المنى ج١.

- الخازن. علاء الدين بن محمد بن ابراهيم البغدادي (١٩٩٥)، تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل)، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية.

- الخالدي صلاح عبد الفتاح، من قصص السابقين في القرآن، دمشق: دار القلم، ط٢ ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ،ج٦.

- سعيد حوى، (١٩٨٩) ، الأساس في التفسير، ط٢، القاهرة، دار السلام.

- سيد قطب، (١٩٩٢)، في ظلال القرآن، ط١٧، بيروت، دار الشروق.

- الشعراوي. محمد متولي، (١٩٩٥)، القصص القرآني في سورة الكهف، القاهرة، مؤسسة أخبار اليوم.

- الشنقيطي محمد الأمين، أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، بيروت: عالم الكتب (د.ت)

- طهماز. عبد الحميد (١٩٨٧)، العواصم من الفتن في سورة الكهف، بيروت ، دار المنارة.

- ظبيان. محمد تيسير، (١٩٧٨)، أهل الكهف، القاهرة، دار الاعتصام.

- عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٥م.

- العمري. أحمد جمال، (١٩٨٦) ، دراسات في التفسير الموضوعي للقصص

القرآني، مصر، المؤسسة السعودية بمصر، مطبعة المدني.

- فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، الأردن: دار النفائس ط٢ ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

- الكحيل عبد الدايم، إشراقات الرقم سبعة في القرآن الكريم، في: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ٢٠٠٦م.

- الجندوب، أحمد علي، (١٩٩٦)، أهل الكهف في التوراة والانجيل والقرآن، ط٢ ، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.

- الفولي محمد أحمد جاد الفولي وآخرون، قصص القرآن، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٢م.

- الندوي، أبو الحسن الحسني،(١٩٩٧)، الصراع بين الإيمان والمادية، تأملات في سورة الكهف، بيروت، الدار الشامية.

- كتب تخريج الحديث النبوي .